

الحياة الاجتماعية لظرفاء بغداد في العصر العباسي المتأخر

الأستاذ المساعد الدكتور عبد الكريم عز الدين صادق

جامعة بغداد - كلية التربية للبنات - قسم التاريخ

مستخلص البحث:

يتناول هذا البحث جوانب من الحياة الاجتماعية لظرفاء بغداد في العصر العباسي المتأخر، ويمثلون إحدى الظواهر الاجتماعية والحضارية في تلك الحقبة التاريخية.

وتناولنا فيه عدة مواضيع ومنها : الأخلاق ، الزينة والتجميل، الملابس، الطعام. وعلى الرغم من المعلومات القليلة لهذا الموضوع، إلا أن هنالك بعض الإشارات التي يمكن الاستفادة منها في الكتب التراثية، وبعد كتاب (الموشى، والظرف والظرفاء)، لمؤلفه (الوشاء ت : ٣٢٥هـ/٩٣٦م) ، من أهم وأغنى المصادر التي تزودنا بالمعلومات عن ظرفاء بغداد.

مقدمة البحث :

شهدت الخلافة العباسية عبر مراحلها التاريخية تطورات متعددة وفي مجالات مختلفة، وقد أثر ذلك على سلوك وأذواق الناس، وبالتالي فإن ذلك التطور شمل أصناف من المجتمع العباسي.

وبرزت فئة من الناس لهم تقاليدهم الخاصة، والمعجزة عن الرقي الاجتماعي، وهم الظرفاء، وأصبحوا يمثلون ظاهرة اجتماعية لا يمكن التغافل عنها في العصر العباسي المتأخر، ولا بد من الوقوف على هذه الظاهرة وتقييمها تاريخياً، والحقيقة أن

السلوك المهذب للمجتمعات المتمدنة في يومنا الحاضر، ما هي إلا امتداد تاريخي لسلوك هؤلاء الظرفاء، والقاسم المشترك بينهما هو الرقي في الذوق الإنساني المتمدن.

تعريف الظرف : اتفق اللغويون على مدلولات لغوية لمعنى الظرف، وأن اختلفوا في التعبير عن هذا المعنى، فالظرف يعني البراعة وذكاء القلب، ويوصف به الفتيان والفتيات، وقيل الظرف حسن العبارة، وقيل حسن الهيئة، وقيل الحذق بالشيء، وكلمة الظرفاء تعود إلى الفعل ظرف يظرف^(١).

وهناك من يرى بأن الظرف مشتق من الفطنة والظرف حسن الوجه والهيئة. وقال بعض المشيخة : الظريف الذي تأدب- وأخذ كل العلوم، فصار وعاءً لها^(٢). والظريف كلمة تطلق على الرجل الذي تنطبق عليه مواصفات الظرف، وجمعها ظرفاء أو ظروف للرجال، وظراف وظرائف للنساء^(٣).

واهتمت كتب التراث العربي الإسلامي في أبراز فعاليات وأنشطة الظرفاء في مؤلفات متعددة، ذكر منها ابن النديم في فهرسته ومنها:

(١) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت: ٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، دار صادر، بيروت - بدون سنة، ج ٩، ص ٢٢٨.

(٢) الوشاء، أبو الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى (ت: ٣٢٥هـ/٩٣٦م)، الموشى والظرف والظرفاء، تحقيق كمال مصطفى، دار صادر، بيروت - ١٩٦٥، ص ٦٦.

(٣) الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد (ت: ٣٧٠هـ/٩٨١م)، تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الدار العربية للتأليف، القاهرة - ١٩٦٤، ج ١٤، ص ٣٧٣.

كتاب أخبار المتظرفات لابن أبي طاهر^(١)، وكتاب المتظرفين والمتظرفات لابن عبيد الله^(٢)، وكتاب الظرفاء لعلي بن داود^(٣).

كما ذكر الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد أخباراً لتمجيد ظرفاء أهل بغداد^(٤). ومن أهم كتب التراث الخالد في أخبار الآداب المتعلقة بالظرفاء وبصورة تفصيلية هو كتاب الموشى أو الظرف والظرفاء للشواء.

وهناك سمات عامة لهؤلاء الظرفاء، وتظهر من خلالها التطور الذوقي والمعرفي الذي أفرزته التطورات الحضارية للعصور العباسية، فيمكن توصيف ذلك للظرفاء "المن تكامل ظهور بزته وظهور طيب رائحته، ونقاء درنه، ونظافة بدنه، ولا تسخ له ثوب، ولا يدرن له جيب، ولا ينفثق له ذيل، ولا في سراويله ثقب، ولا يطول له ظفر، ولا يكثر له شعر"^(٥).

وللظرفاء أريحية وقبول لدى فئات المجتمع العباسي لما يتصفون به من مظاهر سلوكية وأخلاقية عند أغلبهم، فالظريف "بسيط الكف، رحب الصدر، سهل الخلق كريم الطباع، بحر زخور، ضحوك السن، بشير الوجه، بادي القبول، غير عبوس، يستقبلك بطلاقة، وبحبيك ببشر، تبهجك طلاقته، ويرضيك بشره، ضحاك على مائدته، عبد لضيافته"^(٦).

(١) ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحق (ت: ٣٨٥هـ/٩٩٥م)، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، بدون سنة، ص ١٤٦.

(٢) م. ن، ص ١٤٧.

(٣) م. ن، ص ١٢٠.

(٤) ينظر: ج ١، ص ٥٠-٥٤.

(٥) الشواء، الموشى، ص ٢٢٣.

(٦) القبيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت: ٤٥٣هـ/١٠٦١م)، زهر الآداب وثمر الألباب، شرح د. زكي مبارك، ط ٤، دار الجيل، بيروت، بدون سنة، ج ١، ص ٦١٩.

أن تلك الصفات العامة الجيدة، هي التي جلبت أنظار الناس إليهم، فالظريف "مطبوع بشهد له القلب، عند معاينته بحلاوته، وتسكن النفس عند لقائه إلى مجالسته، وتصبو إلى محادثته وترتاح إلى مشاهدته، وهو بين في شمائله، ظاهر في خلاته، بين في منطقه، غير مستتر عند صمته، دلائله واضحة في مشيته وزيه ولفظه، ومن زيه النظافة، والملاحة، واللطافة، وأظهار البزه، وطيب الرائحة، فالنفوس إليهم تائفة، والأرواح عاشقة"^(١).

ومما لا شك فيه أن التطور الحضاري الذي شهدته بغداد حاضرة الخلافة العباسية، قد لعب الدور الأساس في تطوير سلوكيات وأذواق المجتمع، حتى أصبح البغداديون رمزاً من رموز التألق الإنساني الرفيع، وهنالك أمثلة كثيرة على ذلك، منها على سبيل المثال، بأن الإمام الشافعي قد سأل مرة مولاه يونس بن عبد الأعلى قائلاً: يا يونس دخلت بغداد؟ قال: لا قال: يا يونس ما رأيت الدنيا، ولا رأيت الناس^(٢). ويبدو أن ثقافة الظرف قد أثرت فيهم مما جعلوا أكثر مروءة وخلقاً وتهذيباً عن بقية أفراد المجتمع، ولذلك قال أحدهم: "من أراد أن يتعلم المروءة والظرف فعليه بسقاة الماء ببغداد. فقيل له: وكيف ذاك؟ فقال: لما حملت إلى بغداد رمي بي على باب السلطان مقيداً، فمر بي رجل متزر بمنديل مصري، معتم بمنديل ديبقي، بيده كيزان خزف رفاق وزجاج مخروط. فسألت: هذا ساقى السلطان؟ فقيل لي: لا، هذا ساقى العامة. فأومأت إليه: أسقني فتقدم وسقاني فشممت من الكوز رائحة مسك، فقلت لمن معي: أدفع له

(١) الوشاء، الموشى، ص ٧٣-٧٤.

(٢) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت: ٤٦٣هـ/١٠٧١م)، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الكتاب العربي - بيروت، بدون سنة، ج ١، ص ٤٥.

ديناراً فأعطاه الدينار فأبى. وقال : ليس آخذ شيئاً . فقلت له: ولم؟ فقال : أنت أسير وليس من المروءة أن آخذ منك شيئاً. فقلت كمل الظرف في هذا^(١).
وللظرفاء سمات خاصة، وهذه السمات متعددة ومختلفة، وتميزهم عن بقية المجتمع العباسي ومنها:

الأخلاق :

يتميز الظرفاء بسلوكهم المهذب والذي يمثل عن ثقافتهم في الظرف، وانعكس ذلك على الكثير من نشاطاتهم اليومية، فعندهم " عدم جلوس الأخفاء ولا السرعة في المشي ولا الألتفات إلى طريق قصده ولا الرجوع عن طريق سلوكه ولا ينفضون الغبار عن أرجلهم في المواضع المكنوسة، ولا يستريحون في الأماكن المرشوشة"^(٢).
ومن الظرف أن تجاري احترام ومشاعر الآخرين حتى في طريقة الجلوس " فإذا أتاه إنسان وسع له فأن لم يجد موضعاً تحرك ليريه أن يوسع له"^(٣). ولهم رسوم خاصة حتى في أسلوب اللقاء مع الآخرين، ومنها أن من يدخل فعليه " بتخفيف السلم، وتقليل الكلام، وتعجيل القيام"^(٤).

(١) م. ن، ج ١، ص ٥٠.

(٢) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت: ٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، المؤنس الوحيد، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون سنة، ص ١٩٣.

(٣) ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت : ٢٧٦هـ/١٨٩م) ، عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون سنة، ج ١، ص ٤٢٤.

(٤) الثعالبي، لطائف الظرفاء من طبقات الفضلاء، تحقيق د. عدنان كريم الرجب، ط ١، الدار العربية للموسوعات، بيروت- ١٩٩٩، ص ١٠٦.

والاعتدال في الحياة هي إحدى خصائصهم، ذلك الاعتدال الذي يتخذ من الوسطية في التعامل اليومي منهجاً وسلوكاً فنراهم يكرهوا المزاح المفرط وينهون عنه، لأن ذلك سقوط للمروءة التي تؤدي إلى عملاً لا يحمد عقباه^(١).
وأهتم الظرفاء بالأمور الصغيرة والدقيقة في حياتهم اليومية والتي يتغافل الآخرون عنها على الرغم من أهمية تلك الملاحظات، ومنها بأنهم "لا يتثأبون، ولا يشتشزون، ولا يتجشؤون، ولا يمتطون، ولا يتبصقون"^(٢).

الزينة والتجميل:

اعتنى الظرفاء في العصر العباسي المتأخر بالترويج لقيم الجمال والتأنق في حياتهم اليومية، واعتبروه مطلباً حضارياً وإنسانياً، وقد عُرف عن الرجل الذي يهتم بهذه القيم بأنه يستخدم "العطر والصبغ، والخضاب، والكحل، والنتف، والقص، والحلق، وتجويد الثياب وتنظيفها"^(٣).
وذهب الأمر بهم بأن ينصحوا الآخرين للاهتمام بأناقتهم ونظافتهم وعدم إهمال مظهرهم الخارجي، وهذا أحدهم ينصح آخر قائلاً له: "لكن أظفارك مقلومة وطرف كماك نظيفاً"^(٤).

(١) القيرواني، زهر الآداب، ج ١ ص ٥٢١-٥٢٢.

(٢) الوشاء، الموشى، ص ٢١٩.

(٣) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت: ٢٥٥هـ/٨٦٨م)، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام

محمد هارون، ط ١، مكتبة الخانجي، مصر - ١٩٧٩، ج ٣، ص ١٤٢.

(٤) الثعالبي، لطائف الظرفاء، ص ٩٣.

وشارك بعض الظرفاء الأغنياء في رسوم مجالسهم مع مجالس الخلفاء في التأنق والترف من خلال استخدام المذبات والمراوح، ليزيد في ذلك ظرفاً وحسناً، وليكون بياناً عن المقدرة المالية والاجتماعية^(١).

ومن المعروف أن الإنسانية عبر مراحلها التاريخية، اتفقت على أن للورد أهمية خاصة لأنه من الأشياء الجميلة والممتعة في حياتنا اليومية لما في منظرها وروائحها مما تبهج النفس الإنسانية، وقد لا يختلف اثنان في ذلك، إلا أن هذه الورد الجميلة لم تعط من الأهمية مثلما أعطي للظرفاء، واعتبروه رمزاً لأمر كثيرة، ولذلك أكثروا "في تفضيل الورد، وقد أطنبوا فيه، وأفرطوا في نعت حسنه، واشتهوا رائحته حتى شبهوه بالوجنات الحمر، ومثلوه بالأشياء الملاح، كفعلهم بالنتفاح، وهما عندهم في مرتبة واحدة"^(٢).

ويبدو أن هذا الاهتمام بالورد قد انعكس على فئات مختلفة من المجتمع العباسي، مما حدا بأحدهم أن "يلبس في أيام الورد الثياب الموردة ويفرش الورد في مجلسه ويطيب جميع آلاته بالورد"^(٣).

ولاهتمام الظرفاء بالورد، مما دفع بأقلام الكتاب والشعراء أن يكتبوا في الورد ومحاسنه ويتغزلون به، فيوصف أحد الأدباء ذلك، بالقول: هو "در أبيض، وياقوت أحمر، على كراسي زبرجد أخضر، توسطه شذور من ذهب أصفر، له نفحات العطر"^(٤).

(١) ينظر: الجاحظ، الرسائل، ج ٢، ص ١٥٥.

(٢) الوشاء، الموشى، ص ٢٠٤.

(٣) الأبيشي، شهاب الدين أحمد (ت: ٨٥٠هـ/٤٤٦م)، المستطرف في كل في مستظرف، المطبعة المحمودية التجارية، مصر، بدون سنة، ج ٢، ص ٤٢٨.

(٤) القيرواني، زهر الآداب، ج ١، ص ٥٦٧.

واعتبر الظرفاء أن الورد تعبير عن الخدود الحسان، ويبدو أن هذا الوصف ينطبق على الورد الأحمر، ولذلك يقول الشاعر في ذلك:

عشت حياتي بوردٍ كأنه خدود أضيفت بعضهم إلى بعض^(١)

ويفضل بعض الظرفاء ورد على آخر، إلا أن أغلبيتهم يستحسنون ورد البنفسج، ويعتقدون أن هذا الورد يحتوي على كلمة (فس) وهو تعبير عن التبادل الروحي للنفوس بين الظرفاء، ويقول الشاعر في ذلك:

أهدت إليه بنفسجاً يسليه

تنبه أن بنفسها تفديه

وارتاح بعد صباية وكآبة

ورجا لحسن الظن أن تدنيه^(٢)

ويفضل بعضهم ورد النرجس على الورد الجوري، مما حدا بأحد الأدباء أن يرد على ذلك دفاعاً عن الورد الجوري:

أفضل الورد على النرجس لا أجعل الا نجم كالشمس

بس الذي يقعد في مجلسه مثل الذي يمثل في المجلس^(٣)

وتطير الظرفاء من ورد الشقائق، وذلك لورود معنى (الشقا) في محتوى الكلمة مما تذهب بالنحس والشر، قال الشاعر:

لا تراني طوال ده ري أهوى الشقائقا

أن يكن يشبه الخدود ، منتصف أسمه الشقا^(٤)

(١) الوشاء، الموشى، ص ٢٠٦.

(٢) م. ن ، ص ٢٠٣.

(٣) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت: ٧٣٣هـ/١٣٣٢م) ، نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة ، بدون سنة، ج ١١، ص ١٩٢.

(٤) القيرواني ، زهرا الآداب، ج ١، ص ٤٦٨.

وكذلك تطيروا من ورد الياسمين، لورود كلمة (ياس) وهي قريبة من كلمة (اليأس)، وهذه الكلمة غير مرغوبة لديهم وهم الذين يتفنون في حياتهم اليومية للوصول إلى الرفاهية والترف، ووصف الشاعر ذلك:

أني لأذكر بالريحان رائحة منها فللقب بالريحان أيناس

وأمنح الياسمين البعض من حذري لليأس، إذ كان في بعض أسمه ياس^(١)

وأهتم الظرفاء بالعطور والروائح الزكية الفواحة، وأعدوا عيباً في الإنسان الذي تتطاير منه الروائح الجسمية الكريهة، وأكدوا على أن لا يتطاير لأبط الإنسان رائحة الذفر الكريهة^(٢).

ومن عطورهم المميّزة في ذلك الطيب بالمسك وبماء الورد، واستعمال العود المعنبر بماء القرنفل المخمر، والعنبر البحراني^(٣).

واستخدموا العود الطري الرطب الهندي والمسك الصيني، أما ماء الورد الجوري فأنهم يضعونه على مسام الشعر لتبقى رائحته الفواحة لوقت طويل^(٤).

وتجنب الظرفاء " الكافور لعله برده فلا يستعملونه"^(٥) ، واجتنبوا " ماء الخلق لأنه طيب النساء والغالية إذ هي من طيب الصبيان والأماء ، ولا يستعملون شيئاً من الطيب الذفر مما يبدو له لون ويبقى له أثر"^(٦).

(١) الوشاء، الموشى، ص ١٩٩.

(٢) م. ن ، ص ٢٢٣.

(٣) م. ن ، ص ١٨٢.

(٤) الأزدي، محمد بن أحمد أبي المطهر (ت : منتصف القرن الرابع الهجري) ، حكاية أبي القاسم البغدادي، مكتبة المثنى ، بغداد، ١٩٠٢، ص ٣٦-٣٧ .

(٥) الوشاء ، الموشى، ص ١٨٢.

(٦) م . ن ، ص ١٨٣.

وهذه دلالات واضحة على رفعة الذوق العام لدى الظرفاء ، أما المتظرفات من النساء فلهم حياتهم الخاصة التي تختلف عن حياة الرجال الظرفاء، فكانت عطورهم هي الصندل - والقرنفل، والمعجونات والزعفران والخلوق والكافور وماء الكافور ، وسائر صنوف الأدهان من البنفسج والزنبق^(١).

ومن الطريف في هذا الموضوع بأن النساء يستعملن جميع طيب الظرفاء والظرفاء لا يستعملون شيئاً من طيب النساء^(٢)، على الرغم من الانفتاح الاجتماعي لدى الظرفاء، ويبدو أن ذلك يعزى إلى اعتزاز الظرفاء بقيم الرجولة ومفرداتها.

وأهتم الظرفاء بالخواتيم واعتبروها من محاسن التأنق والظرف ويتخذون من فصوص تلك الخواتيم وسيلة للتعبير عن ذلك، لما في تلك الفصوص من ألوان ولمعان تجذب الناظر إليها، واستخدموا في ذلك العقيق الأحمر والفيروزج الأخضر، والفضة المحرقة والياقوت، والياقوتية الصفر، واليمانية السود، ولا يتختمون بالذهب لأن ذلك من لبس النساء^(٣)، أما النساء المتظرفات فيتختمن بخواتيم ذات اشكال تشبه القرون، ولا يحسن لهن التختم بالميना والعقيق والفضة والحديد لأن ذلك من لبس الرجال والأماء.

وأخذ بعض الظرفاء كتابات على فصوص خواتيمهم، وأغلب هذه الكتابات متعلقة بالشعر والأدب والعشق^(٤).

وعلى الرغم من هذا الاهتمام عند الظرفاء في لبس الخواتيم، والتفنن فيه. إلا أن البعض منهم يتطير من هدية الخاتم، وزعموا أنه يدعو إلى القطيعة، وتهاداه آخرون وأقاموه مقام التذكرة والوديعة^(٥).

(١) م. ن ، ص ١٨٦.

(٢) م. ن، ص ١٨٧.

(٣) م. ن ، ص ١٨١.

(٤) ينظر : م . ن ، ص ٢٤٤-٢٤٨.

(٥) م . ن، ص ١٨٨.

هذا وقد لبس المتظرفات القلائد المفصلة، والمعادات المخرمة بشرابات الذهب المشبكة، واختاروا فصوص خاصة لهذه القلائد والتي تعطي للمرأة رونقاً وجمالاً ومن هذه الفصوص: البلور ، حب اللؤلؤ، وسائر صنوف الياقوت والجوهر^(١) .
ولغرض الحفاظ على الجمال، فلقد استخدم الظرفاء الحناء ليعطي رونقاً وتألقاً للإنسان، ولم يستخدموه لطلاء شعر الرأس واللحية فقط، بل تفننوا فيه بكتابات شعرية وعاطفية على راحة اليد والأقدام^(٢) . والبعض منهم استخدم تلك الكتابات على الجبين والخذ^(٣) .

أن هذا الاهتمام بالحناء في العصور العباسية، مما دفع بالبعض في تطوير صناعته حتى وصل الحال إلى تكوين خلطة للمواد الخاصة بذلك ويخلط بالدهن ويطل به الشعر، فيسوده، واستخدموا هذا الخضاب وتأخر الشيب دهنراً طويلاً^(٤) .
ومن أجل الظهور أمام الناس بالمظهر الحضاري اللائق، فقلد اهتم الظرفاء بنظافة أسنانهم، وهي المظاهر الحضارية عبر كل العصور واستخدموا في ذلك السواك واعتبروا ذلك " أنبل للنظافة، وأحسن الطهارة، وأكمل المروءة، ويرغب فيه أهل الظرف والفتوة، وله خصال مستحسنة، وهو أيضاً من السنة^(٥) .

(١) الوشاء ، الموشى ، ص ١٨٧ .

(٢) م . ن ، ص ٢٧٥ - ٢٧٧ .

(٣) م . ن ، ص ٢٧٨ .

(٤) التتوخي، أبو علي المحسن بن علي (ت: ٣٨٤هـ/٩٩٤م)، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، تحقيق عبود الشالجي، بيروت، ١٩٧٣، ج ٣، ص ٣٦ .

(٥) الوشاء ، الموشى، ص ٢١٠ .

إلا أنهم ووفق ذوقهم الرفيع والمتحضر، وضعوا تعليمات للأماكن التي لا يجوز فيها التسوك وهي: الخلاء والحمام، وقارعة الطريق، ومحفل الناس، وأن لا يتسوك وهو متكئ ولا نائم ولا يستاك وهو يتكلم^(١).

الملابس:

للملابس فوائد متعددة، ومنها أنها تعطي الرونق والتأنق للإنسان، ومن البديهي أن يكون ذلك من الضروريات عند الظرفاء، فعندهم "لا ينبغي للظريف أن يمشي بلا سراويل ولا يتزر بمنديل ولا يمشي محلول الأزرار"^(٢).

واستخدموا بذلك الأقمشة المختلفة من جيد الكتان الناعمة الرقيقة الألوان مثل الديبقي والخامات والملح الخزي والخراساني، والأردية المحشاة العنيدية، وطبالسة الملح النيسابورية، الجباب النيسابورية، والوشي والأكسية الفارسية والطبالسة الزرق^(٣).

ويبدو بأنهم من الرفعة الذوقية، فقد اهتموا بتنسيق ألوان هذه الملابس ذات الألوان الصارخة ويعتبرونها من شأن النساء والأماء، وكان أقصى ما يجوز أن يلبسه من الملون في خاصة بيته وفي أيام الأحتجام وفي حلقات الشراب. أما ارتداء الملابس الملونة في الشوارع فلم يكن اتخاذها يعتبر من شأن الظرفاء^(٤).

ولإضفاء الصفة الجمالية وبما يتناسب مع ثقافة الظرف، راحوا يكتبون أبيات الشعر الجميلة على ذبول أقمصتهم^(٥).

(١) م . ن ، ص ٢١١-٢١٢ .

(٢) الوشاء، الموشى ، ص ٢٢٢ .

(٣) م . ن ، ص ١٧٨-١٧٩ .

(٤) متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، ط٤،

دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧، ج ٢، ص ٢٢٨ .

(٥) الوشاء، الموشى، ص ٢٥٢-٢٥٥ .

وهناك اهتمام للنساء المتظرفات في فنون الملابس، فاستخدمن " الأردية الطبرية والحريير المعين والمقانع النيسابورية، وأزر الملحم الخراسانية، والكمام المفتوحة، والسراويلات البيض المذيلة، ولا يلبسن شيئاً في التكك ولا النقية الألوان، ولا من الثياب البيض الكتان، الا ما كان ملوناً في نفسه أو مصبوغاً في جنسه، ولا يلبسن من الثياب الأصفر والأسود والأخضر والمورد والأحمر والأزرق، والحداد من لبس الأرامل فلا يلبسونه"^(١).

وهناك اهتمام للنساء في العصور العباسية بالعصائب، باعتبارها رونقاً فوق الرؤوس، فأخذ النساء المتظرفات في تعميق ظرفهن عندما نقشن نقوشاً جميلة على عصائبهن بالأبريسم والذهب^(٢).

وهناك من المتظرفات من كتبن أبيات الشعر على عصائبهن ومناديلهن^(٣) وتفنن الظرفاء في اختيار الخفاف والنعال، فاستخدموا النعال الزيجية، والمشعر، اليمانية ويشرك أسودها بأحمر، وأصفرها بأسود، ويلبسون الخفاف الهاشمية والجوارب الخز والمرعزي والقرز، ويعيبون لبس الأحمر من الخفاف^(٤).

أما المتظرفات فاتخذن الخفاف المطبقة ويضعن عليها فصوص الياقوت الأحمر، والزمرد الأخضر^(٥)، ويبدو أن هذا النوع من الخفاف يرتديهن المتظرفات الغنيات وقد يكون ذلك بمشاركة الأخريات من الفتيات غير المتظرفات.

(١) م. ن ، ص ١٨٤-١٨٥.

(٢) الوشاء، الموشى ، ص ١٨٧.

(٣) م . ن ، ص ٢٥٦-٢٦٠ .

(٤) م . ن ، ص ١٨٠.

(٥) م . ن ، ص ١٨٧.

الأطعمة والأشربة :

يهتم الناس بالطعام باعتباره أحد المقومات الرئيسة لإدامة حياتهم، وتقنوا في تنويع الطعام ليكون أكثر مذاقاً ومرتعة في الأكل، ألا أن الظرفاء وفي ذلك العصر ذهبوا إلى إيجاد رسوم تقنن موائد الطعام في طريقة حضارية وعقلانية، وهذا بالطبع عائداً إلى فهمهم لفن العلاقات العامة وطريقة التعامل اليومي مع المفردات الحياتية.

ومن هنا اهتمامهم بأداب تناول الطعام، ومنها على المدعو لمأدبة الطعام الإسراع في تلبية الدعوة وعدم التثاقل لكي لا يكون سبباً في اشتداد جوع الداعي وجوع المدعويين^(١).

وكذلك أن لا يبادر المدعو إلى دعوة الآخرين لمأدبة الطعام دون الأذن من صاحب الدعوة^(٢)، وأن لا يبادر المدعو إلى إبداء رأيه في تنظيم مأدبة الطعام أو ملاحظاته على أثاث بيت الداعي لأن ذلك عندهم من الأمور المخلة بأداب دعوات الطعام^(٣)، وعلى المدعو أن لا يعترض على موقع جلوسه إذا أجلسه الداعي في مكان أكرمه به^(٤)، وأن لا يسأل المدعو من الداعي في بيته سوى اتجاه القبلة وموضع قضاء الحاجة^(٥).

ووصف أحد الظرفاء آداب مراسيم الطعام، قائلاً: أحق الناس بلطمة من إذا دُعي إلى طعام ذهب بآخر معه، وأحقهم بلطمتين من إذا قيل له: أجلس ها هنا، قال :

(١) كشاجم، أبو الفتوح محمود بن الحسين (ت: ٣٦٠هـ/٩٧٠م)، أدب الندماء ولطائف الظرفاء، مطبعة

جرجي غرزوزي، الإسكندرية، ١٩١١، ص ٢١.

(٢) الأبشيهي، المستطرف، ج ١، ص ٢٩٩.

(٣) م.ن، ج ١، ص ٢٩٨.

(٤) م.ن، ج ١، ص ٢٩٧.

(٥) التوحيد، أبو حيان علي بن العباس (ت: ٤١٤هـ/١٠٢٣م)، الأمتاع والمؤانسة، شرح أحمد أمين،

مكتبة الحياة، بيروت، بدون سنة، ج ٣، ص ٣.

بل ها هنا وأحق الناس بثلاث لطمات من إذا قيل له: كل ، قال : ما بال صاحب البيت لا يأكل معنا^(١).

ويظهر لنا أن تلك الآراء تبين التنظيم الأخلاقي والحضاري، والهدف تعميق السلوك والذوق السليمين إلى عامة الناس وترشيدهم نحو الصواب. ويذهبون بالآراء المهذبة في طريقة تناول الطعام والتي تتناسب مع قيم التحضر، فعندهم " أن أول ما استعملوه تصغير اللقم، والتجامل عن الشره والنهم"^(٢)، ولا " يقطعون أصابعهم ، ولا يملأون باللحم أفواههم، ولا يقطرون على أكفهم، ولا يعجلون في مضغهم، ولا يأكلون قدراً بائناً، ولا قدراً مسخنة، ولا يغمسون في مرقة"^(٣)، " ولا يقطعون بالعظام"^(٤).

ومن تقاليدهم الأخرى في الطعام بأنهم " لا يدخلون وكان هراس، ولا يجتازون بديكان مراق، ولا يأكلون شيئاً مما يتخذ في الأسواق، ولا يأكلون على قارعة الطريق، ولا في مسجد ولا في سوق"^(٥).

ومن آداب الظرفاء في موائد الطعام بأن " لا يكثرون من الضحك والكلام عند حضور مائدة الطعام، ولا يخللون على المائدة قبل أن تفرغ، ولا يتحفظون لمجيئها قبل أن توضع، وإذا غسلوا أيديهم لم يطلبوا الغسل قبل طلب أبتائها من الوسخ والكد"^(٦).

(١) م. ن ، ص ٤.

(٢) الوشاء ، الموشى ، ص ١٩١.

(٣) م . ن ، ص ١٩٢ .

(٤) ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد (ت : ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) ، العقد الفريد، تحقيق د. عبد المجيد الترحيني، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٩٨٧، ص ٤٥٧.

(٥) الوشاء، الموشى، ص ٢٢٠.

(٦) م ، ن ، ص ١٩٣.

ويكرهوا تناول بعض الأطعمة، فهم لا يأكلون العصبة والعضلة، ولا العرق والكلوة، ولا الكرش، ولا الطحال والرئة، ولا يأكلون الثريد ولا يتحسسون المرق، ولا يتبعون مواضع الدسم^(١).

ويؤكدوا على ضرورة عدم الشراهة في تناول الطعام، والابتعاد عن البدانة التي لا تليق بأجسام الظرفاء، ويقولون في ذلك أن العرب تمدح بالضمير وتذم السمن وتتسبأهل النحول إلى الأدب والمعرفة وأهل السمن إلى قلة الفهم^(٢).

وللفواكه عند الظرفاء مدلولات ومعان، وعندهم أهمية خاصة للتفاح، ويبين لنا الوشاء في كتابة الموشى حبهم إلى التفاح بالقول: " أعلم أن التفاح عند ذوي الظرف والعشاق، وذوي الاشياق لا يعد له شيء من الثمر ولا النور والزهر كيف وبه تهدأ أشجانهم، وبورده تسكن أحزانهم، وعنده يضعون أسرارهم، وإليه يبدون أخبارهم، إذ كان عندهم بمنزلة الحبيب والأنيس، وبموضع الصاحب والجليس، وليس في هداياهم ما يعادله، ولا في الطافهم ما يشاكله لعلبة شبيهه بالخدود الموردة والوجنات المضرجة، وهو عندهم رهينة أحبابهم، وتذكر أصحابهم، إلى وردته يتطربون وبرؤيته يستبشرون، ولهم عند نظرهم إليه أنين، وعند استنشاق رائحته حنين"^(٣).

لقد كان من أعجاب الظرفاء بالتفاح أن يتهادونه فيما بينهم، وخاصة بين العشاق، وعلى وجه الخصوص التفاح المعضوض^(٤).

(١) م. ن ، ص ١٩١.

(٢) م. ن ، ص ٧٩.

(٣) م. ن ، ص ٢٠٧.

(٤) الوشاء ، الموشى، ص ٢٠٨.

وذهبوا إلى كتابة أبيات من الشعر على التفاح وتعطى إلى الآخرين لمعرفة ما يريدون التعبير عنه، وتكتب هذه الأبيات بماء الذهب أو الفضة^(١). ويقول أحد الظرفاء في فضل التفاحة ومحاسنها:

تفاحة جاءت، وقد علقت وركبت بالورد والأسى

أشرب كأسى على ريحها بالرغم من أهلي وجلاسي^(٢)

وأهتم الظرفاء بالنارنج وذكروه في قصائدهم الشعرية، يقول الشاعر، ابن المعتز في ذلك:

وأشجار نارنجٍ كَأَن ثمارها حقاق عقيق قد ملئن من الدر

مطالعتها بين الغصون كأنها خدود عذاري في ملاحفها الخضر^(٣)

ومن الفواكه الأخرى والتي نالت الإعجاب عند الظرفاء هن (الرمان) وتفاعلوا به، ويبدو ان ذلك يعود في أن نصف كلمة (رم) و (آن) والرم يعني إصلاح الشيء بعد خرابه، وإذا ألتقيت الكلمتان فأصبحت (الإصلاح الآن)، وهو جانب كبير في اهتمام الظرفاء لإقامة المصالحة وإصلاح ذات البين بين العشاق الظرفاء المتخاصمين، وقال أحد الظرفاء في ذلك:

أهدت إليه بظرفها رماناً تنبيه أن وصالها قد آنا

قال الفتى لما رآه تفولاً وصل يكون متمماً أحياناً

رم يرم تشعثنى بوصالها لقد التفول صادقاً قد كانا^(٤)

(١) ينظر: م. ن. ، ص ٢٤٩-٢٥١.

(٢) م. ن. ، ص ٢٠٧.

(٣) ينظر: ابن المعتز، أبو العباس عبد الله بن محمد بن المتوكل (ت: ٢٩٦هـ/٩٠٩م)، ديوان ابن

المعتز، دار صادر، بيروت، بدون سنة، ١، ص ٥٠.

(٤) الوشاء، الموشى، ص ٢٠٢.

ويبدو لنا أن أسماء الأشياء التي تحيط بالظرفاء لها دور مؤثر في تفضيل الأشياء على بعضها أو كراهيتها، تماشياً مع مفهوم وعقيدة التطير التي كانت سائدة في تلك العصور التاريخية.

وكره الظرفاء إهداء الليمونة بينهم وخاصة بين الأحباء والعشاق، لأنها جميلة في مظهرها، ولكن في باطنها حامض، وهذه صفة غير مرغوبة عندهم.^(١)
فضلاً عن هذا، فهناك عدد من الأطعمة من الخضروات والفواكه، غير مرغوب في تناولها ومنها: الفجل، الهندبا، الثوم، البصل، الخس، الخيار، الجزر، الزيتون، وسائر الأرباط والمشمش والنبق والعنب والخوخ والأجاص، والتين والبطيخ.^(٢)
ومن مكروهات الأطعمة لدى النساء المتطرفات فهي المالح والمملوح في منازل متعشقين، ولا يأكلون الجراد والأريبان، لعله بالأشياء القبيحة من الحيوان، ولا يأكلون الحبوب التي تهيج الأرياح وتولد القرقرة والانتفاخ^(٣). ولا يتعاطى الظرفاء شرب العصائر من كان "شرابه أسوده، ولا يشربون إلا أجوده، مثل المشمش، والزبيبي، والمعسل"^(٤).
أما شرب الماء، فأنهم "لا يشربون ماء الأحباب، ولا الماء في دكاكين الشراب، ولا ماء المساجد والسبيل"^(٥).

(١) ينظر: ديوان ابن معتر، ج ١، ص ٦٨.

(٢) الوشاء، الموشى، ص ١٩٤.

(٣) م. ن، ص ١٩٢.

(٤) م. ن، ص ١٩٦.

(٥) م. ن، ص ٢٢٠.

الأستاذ المساعد الدكتور عبد الكريم عز الدين صادق
الحياة الاجتماعية لظرفاء بغداد في العصر العباسي المتأخر

قائمة المصادر والمراجع

أولاً- قائمة المصادر :

- الأبشيهي، شهاب الدين أحمد (ت: ٨٥٠هـ/١٤٤٦م).
- ١- المستطرف في كل فن مستظرف، المطبعة المحمودية التجارية، مصر، بدون سنة.
- الأزدي، ممد بن أحمد أبي المطهر (ت: منتصف القرن الرابع الهجري).
- ٢- حكاية أبي القاسم البغدادي، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٠٢.
- الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد (٣٧٠هـ/٩٨١م).
- ٣- تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الدار العربية للتأليف، القاهرة، ١٩٦٤.
- التوحي، أبو علي المحسن بن علي (ت: ٣٨٤هـ/٩٩٤م).
- ٤- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي، بيروت، ١٩٧٩.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت: ٤٢٩هـ/١٠٣٧م).
- ٥- لطائف الظرفاء من طبقات الفضلاء، تحقيق د. عنان كريم الرجب، ط١، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ١٩٩٩.
- ٦- المؤنس الوحيد، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون سنة.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت: ٢٥٥هـ/٨٦٨م).
- ٧- رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط١، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٧٩.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر احمد بن علي بن ثابت(ت: ٤٦٣هـ/١٠٧١م).

- ٨- تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون سنة.
- ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد (ت: ٥٩٧هـ/١٢٠٠م).
- ٩- العقد الفريد، تحقيق عبد المجيد الترحيني، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.
- ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت: ٢٧٦هـ/٨٨٩م).
- ١٠- عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون سنة.
- القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت: ٤٠٣هـ/١٠٦١م).
- ١١- زهر الآداب وثمر الألباب، شرح د. زكي مبارك، ط٤، دار الجيل، بيروت، بدون سنة.
- كشاجم، أبو الفتح محمود بن الحسين (ت: ٣٦٠هـ/٩٧٠م).
- ١٢- أدب الندماء ولطائف الظرفاء، مطبعة جرجي غرزوزي، الإسكندرية، ١٩١١.
- ابن المعتز، أبو العباس عبد الله بن محمد بن المتوكل (ت: ٢٩٦هـ/٩٠٩م).
- ١٣- ديوان ابن المعتز، دار صادر، بيروت، بدون سنة.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت: ٧١١هـ/١٣١١م).
- ١٤- لسان العرب، دار صادر، بيروت، بدون سنة.
- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحق (ت: ٣٨٥هـ/٩٩٥م).
- ١٥- الفهرست، دار المعرفة، بيروت، بدون سنة.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت: ٧٣٣هـ/١٣٣٢م).
- ١٦- نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، بدون سنة.
- الوشاء أبو الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى (ت: ٣٢٥هـ/٩٣٦م).

الأستاذ المساعد الدكتور عبد الكريم عز الدين صادق
الحياة الاجتماعية لظرفاء بغداد في العصر العباسي المتأخر

١٧- الموشى أو الظرف والظرفاء، تحقيق كمال مصطفى، دار صادر،
بيروت، ١٩٦٥.

ثانياً- المراجع الأجنبية المعربة:

- متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد
الهادي أبو ريذة، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧.